بسم الله الرحمن الرحيم

٨٧ – سورة الأعلى

مكية وآيها تسع عشرة: قال ابن كثير: والدليل على أنها مكية مارواه البخارىّ[١] عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبىّ ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. فجعلا يُقرئاننا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين. ثم جاء النبىّ ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به. حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء. فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى، فى سور مثلها.

وعن علىّ رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » تفرد به الإمام أحمد[٢]، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. وعن النعمان ابن بشير[٣] أن النبىّ ﷺ كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية. وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأها. رواه مسلم وأهل السنن. وعن عائشة أن النبىّ ﷺ كان يقرأ فى الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين.

---

(١) أخرجه فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٨٧ ـ سورة الأعلى، ١ ـ حدثنا عبدان، حديث رقم ١٨٣١. (٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٤٢ (طبعة المعارف). (٣) أخرجه مسلم فى: ٧ ـ كتاب الجمعة، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا).

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى)

[٢] (ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣] (وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ)

[٤] (وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ)

[٥] (فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ)

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » أى نزه ربك عما يصفه به المشركون من الولد والشريك ونحوها، كقوله[1] (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) فالاسم صلة . وسرُّ إيراده أن المنوه به إذا كان فى غاية العظمة ، كثيراً ما تضاف ألفاظ التفخيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره . كما يقال سلام على المجلس العالى . هذا ما ذكروه . وثمة وجه آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى ، لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقحم تنبيها على ذلك . ومما يؤيده ما ذكر من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا : سبحان ربى الأعلى ، كما رواه ابن جرير[2] وغيره .

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه أن يسمى به شىء سواه، كما كان يفعل المشركون من تسميتهم آلهتهم ، بعضها اللات وبعضها العزى ، حكاه ابن جرير[2] فالإسناد على ظاهره ، وهذا ما اعتمده الإمام ابن حزم فى (الفصل) حيث رد على من استدل بهذه الآية

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فى أن الاسم عين المسمى ، ذهاباً إلى أن من الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يسبح غيره . فقال ابن حزم رحمه الله :

وأما قوله تعالى (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى) فهو على ظاهره دون تأويل. لأن التسبيح فى اللغة التى بهـا نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل ، هو تنزيه الشىء عن السوء . وبلاشك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه ، الذى هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء ، عن كل سوء حيث كان من كتاب أو منطوقاً به ، ووجه آخر وهو أن معنى قوله تعـالى (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى) ومعنى قوله تعالى[1] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) معنى واحد . وهو أن يسبح الله تعالى باسمه . ولا سبيل إلى تسبيحه تعـالى ، ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه . فكلا الوجهين صحيح . وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص . ولا فرق بين قوله تعـالى (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) وبين قوله[2] (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ) .

والحمد بلاشك هو غير الله . وهو تعالى يسبح بحمده كما يسبح باسمه ، ولا فرق . فبطل تعلقهم بهذه الآية . انتهى كلامه .

وقد يقال فرق بين الآيتين . فإن الباء فى (بحمد ربك) للملابسة ، ولا كذلك هى فى (باسم ربك) ومع اتساع اللفظ الكريم للأوجه كلها ، فالأظهر هو الأول لما أيده من الأخبار ، ولآية (فَسَبِّحْهُ) وآية (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ) والله أعلم .

و (الأعلى) هو الأرفع من كل شىء ، قدرة وملكاً وسلطاناً . واستدل السلف بظاهره فى إثبات العلوّ بلا تكييف . والمسألة معروفة .

« ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ » قال الزمخشرىّ : أى خلق كل شىء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وإنه

(١) [٥٦ / الواقعة / ٩٥و٩٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨و٤٩].

صنعة حكيم . « وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ » أى قدر لكل حيوان مايصلحه ، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به « وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ » أى أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات « فَجَعَلَهُۥ » أى بعد خضرته ونضرته « غُثَآءً » أى جافًّا يابسا تطير به الريح « أَحْوَىٰ » أى أسود ، صفة مؤكدة (لغثاء) لأن النبات إذا يبس تغير إلى (الحوّة) وهى السواد .

قال ابن جرير[1] : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى أى أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك . وهذا القول وإن كان غير مدفوع ، أن يكون مااشتدت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندى بخلاف تأويل أهل التأويل فى أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره . فأما وله فى موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير . انتهى . والقول المذكور هو للفراء وأبى عبيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ)

[٧] (إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ)

[٨] (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ)

[٩] (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ)

[١٠] (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ)

[١١] (وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى)

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

[١٢] (ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ)

[١٣] (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ)

« سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ » أى سنجعلك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه . والمعنى نجعلك قارئا للقرآن فلا تنساه .

قال الزمخشرىّ : بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى ، وهو أمىٌّ لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ : هذه آية تدل على المعجزة من وجهين :

أحدهما ـ إنه كان رجلًا أميًّا فحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة ، خارق للعادة ، فيكون معجزاً .

وثانيهما ـ إن هذه السورة من أوائل مانزل بمكة . فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع فى المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً .

الثانى ـ قيل (لاتنسى) نهى والألف للإطلاق فى الفاصلة وهو جائز مثل[1] (ٱلسَّبِيلَا) والمعنى لاتغفل قراءته وتكريره فتنساه . فالنهى عنه مجاز عن ترك أسبابه الاختيارية .

قال الرازىّ : والقول المشهور إن هذا خبر . والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لاتنسى وتأمن النسيان . كقولك (سأكسوك فلاتعرى) أى فتأمن العرى ، قال : واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لايتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية . منها أن النسيان لايقدر عليه إلا الله تعالى فلا يصح ورود الأمر والنهى به . فلابد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان . مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

ومنها أن نجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضا خلاف الأصل .

ومنها أنا إذا جعلناه خبرا كان معنى الآية بشارة الله إياه بأنى أجعلك بحيث لاتنساه . وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهى الدراسة والقراءة . وهذا ليس فى البشارة وتعظيم حاله مثل الأول. ولأنه على خلاف قوله[1] (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ) انتهى .

الثالث : قال البرهان الشافعىّ فى كتاب (تفضيل السلف على الخلف) .

إن بعضهم ذكر أن هذه الآية ناسخة لآية (وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ) وتحقيق معنى النسخ هنا فى غاية الإشكال، لأن قوله (وَلَا تَعْجَلْ) نهى عن العجلة، وقوله (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ) ليس بأمر بها ليكون ناسخاً للنهى عنها. بل هو خبر عن بقاء الحفظ بعد إقرائه .

ونحواه مؤكد لمعنى الخطاب الآخر . لأن تأويله إنا نحفّظك تحفيظاً لاتخاف معه النسيان . فلا حاجة لك إلى أن تعجل بالقرآن وتحرك به لسانك . ولكنهم سموه نسخا، لغة لاحقيقة، على معنى تبدل الحال عنده . فإنه ظهر له الأمن عن النسيان بعد خوفه أن ينساه لما كان يحرك به لسانه . انتهى .

وقوله تعالى « إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ » استثناء مفرغ من أعم المفاعيل. أى لاتنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء ، إلا ماشاء الله أن تنساه ، مما تقتضيه الجبلة البشرية أحياناً .

قال الزجاج : إلا ماشاء الله أن ينسى فإنه ينسى . ثم يتذكر بعد ذلك ولا ينسى نسياناً كلياً دائماً . وذلك لأن ما بالجبلة لايتغير . وإلا لكان الإنسان عالماً آخر .

وقد روى البخارىّ[2] عن عائشة أن النبىّ ﷺ قال: رحم الله فلاناً. لقد أذكرنى كذا وكذا آية ، كنت أسقطتهن . ويروى أنسيتهن .

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦] . (٢) أخرجه فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١١ ـ باب شهادة الأعمى ، حديث رقم ١٢٩٢

وقال ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى. رواه الشيخان[١] عن ابن مسعود .

وقيل : الاستثناء مجازىّ بمعنى القلة المراد بها النفى، وذلك أن المخرج فى الاستثناء أقل من الباقى . ولأن (ماشاء الله) فى العرف يستعمل للمجهول . فكأنه قيل : إلا أمراً نادراً لا يعلم . فإذا دل مثله على القلة عرفا ، والقلة قد يراد بها النفى فى نحو (قلّ من يقول كذا مجازا) أريد بالاستثناء هنا ذلك . وهذا ما أشار إليه الزمخشرىّ بقوله: (أو قال إلا ماشاء الله) والغرض نفى النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه (أنت سهمى فيما أملك إلا فيما شاء الله) ولا يقصد استثناء شىء . وهو من استعمال القلة فى معنى النفى .

وقال الفراء ـ فيما نقله الرازىّ ـ : إنه تعالى ماشاء أن يُنسى محمداً عليه السلام شيئاً، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لقدر عليه، كما قال[٢] (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك . وبالجملة فائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرّفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه ، لا من قوته . انتهى .

« إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ » أى ما يجهر به عباده وما يخفونه من الأقوال والأفعال . وهو تعليل لقوله (سَنُقْرِئُكَ) مبين لحكمته ، وهو سبق علمه تعالى بحاجة البشر إلى إقرائه الوحى وإخراجهم به من الظلمات إلى النور .

ثم أشار إلى أن هذا المُقْرَأ الموحى به للعمل. ليس فيه حرج وعسر، بقوله تعالى «وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ » أى نوفقك للطريقة اليسرى ، أى الشريعة السمحة السهلة ، التى هى أيسر

(١) أخرجه البخارى فى: ٨ ـ كتاب الصلاة، ٣١ ـ باب التوجه نحو القبلة حيث كان حديث رقم ٢٦٦

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٨٩ (طبعتنا)

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٦] .

الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر «فَذَكِّرْ» أى عبادَ الله عظمتَه، وعظهم وحذرهم عقوبته « إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ » أى الموعظة. و(إن) إما بمعنى (إذ) كقوله تعالى[1] (وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) أو بمعنى (قد) على ماقاله ابن خالويه . ويؤيده قوله تعالى[2] (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقيل: (إن) شرطية. والمعنى ذم المذكَّرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، تسجيلا بالطبع على قلوبهم كما تقول للواعظ: (عظ المكّاسين إن سمعوا منك) قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون «سَيَذَّكَّرُ» أى يقبل التذكّرة وينتفع بها «مَن يَخْشَىٰ» أى يخاف العقاب على الجحود والعناد، بعد ظهور الدليل «وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى* ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ» أى العظمى ألما وعذابا «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ» أى لا يهلك فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه. قيل: إن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع فى شدة شديدة قالوا (لا هو حى ولا ميت) فجاء على مألوفهم فى كلامهم . و (ثم) هنا للتفاوت الرتبىّ ، إشارة إلى أن خلوده أفظع من دخوله النار ، وصليّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ)

[١٥] (وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ)

[١٦] (بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا)

[١٧] (وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ)

[١٨] (إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ)

[١٩] (صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ)

« قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ » أى فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصى ، وعمل

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٩] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٥٥].

بما أمره الله به «وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ» أى تذكر جلال ربه وعظمته، فخشع وأشفق وقام بما له وعليه ، كقوله تعالى(١) (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) وجوز أن يحمل (تَزَكَّىٰ) على إيتاء الزكاة و(صلى) على إقامة الصلاة، كآية(٢) (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى) لما عهد فى كلامه تعالى من الجمع بينهما فى عدة آيات، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة . لكن قيل عليه، بأن المعهود فى التنزيل الكريم تقديم الصلاة. وأجيب بأنه لاضير فى مخالفة العادة، مع أن الجارى تقديمها إذا ذكرت باسمها. أما إذا ذكرت بفعل مأخوذ منها، فلا . كقوله(٣) (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) والأول أظهر، لأنه أشمل وأعم. وهو أكثر فائدة.

« بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » قال أبو السعود : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام . كأنه قيل، إثر بيان مايؤدى إلى الفلاح : لاتفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها . والخطاب إما للكفرة ، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما فى قوله تعالى(٤) (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا) الآية. أو للكل، فالمراد بإيثارها ما هو أهم مما ذكر ، ومالا يخلو عنه الإنسان غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة ، فى السعى وترتيب المبادئ. والالتفات على الأول لشديد التوبيخ. وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة، وتشديد العتاب فى حق المسلمين . وقرئ (يؤثرون) بالياء «وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ» أى أفضل ، لخلوصها عما يكدر. وأدوم لعدم انصرام نعيمها. والجملة حال من فاعل (تؤثرون) مؤكدة للتوبيخ والعتاب « إِنَّ هَٰذَا » أى ما ذكر فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) أو ما فى السورة كلها « لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ » أى ثابت فيها معناه « صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » بدل من (الصحف الأولى) وفى إبهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها ، من تفخيم شأنها ، ما لايخفى .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢] .
(٢) [٢٠ / طه / ١٤].
(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١] .
(٤) [١٠ / يونس / ٧] .